النُتفة تأتي بالوفرة – سارا سُون لين-بَيم (نوڤيلا)

ترجمة: عبير حماد

https://lalunamelodies.wordpress.com/

نشرت في النيويوركر في الثاني عشر من يوليو سنة 2020

مِكل: أتمنى أني أراسلك على الرقم الصحيح. جربت مراسلتك على الفيسبوك لكن يبدو أنك ما عدت هناك. أحسنتِ! لا أنفك أنوي تعطيل حسابي لكني عندئذٍ أرى صوة لطفل أحدِ في مسيرة وأورط ثانية فيه. بذكر الأمر: **أحببتُ** فيديو معزوفة روز بالتشيلو. أعرف أنه كان من السنة الفارطة إلا أني دمعتُ لما رأيته لأن الاستماع لباخ صلح لك لما أرقنا تذكرين؟

روز شابة جميلة بارعة مبدعة وأي واحدة في هاته وإني أرجو لو أن للأطفال لقياها لسيحبون بعضهم بعضًا. كلهم ضخام ولا أصدق الأمر. المعاش هنا في الخارج يناسبهم لكن الحافلة قد تضيق عليهم أحيانًا ولا سيما إذ هم يتشاجرون هاهاهاها. خنافس اللحاء تواصل الفناء فناءً مؤرقًا وكابوسيًا لكن النافعة في الضارة أن دراستي مُددت ست شهور. ثقبٌ كبير في الخيمة الساعة ومع الأسف ونور أكثر كثيرًا يلج ومن ثم جمع معطيات جديدات عن السناجب الحمراء والقواع ثلجية النعال. الأطفال يشتكون أن يديّ على الدوام تفوح منها رائحة كرائحة زبدة الفول السوداني!!! أخبرهم أنه لا بأس ما دامت مخاطر المهنة تنقضي.

يون مشغول في إنجاز شطر من شهادة الريكي عن بعد وعسى أن ينال الرخصة حين نمضي إلى البيت السنة التلو. غريبة كتابة تلك لأن هنا أخذ يصير كأنه البيت وأنا لأصدق القول في تهيب من الرجعة. ما أعجبها المصادر هنا برانيًا للناس في قاربنا (الحافلة هاهاها). مجتمع تعليم منزلي ... واو! جياشة. الأطفال يتعلمون اليابانية! كتبوا دبابات [1] في الراتينجية الشائكة أردتُ أن أريها أملكِ. **تانكا** عذرًا الواضح أن الجوال لا ينطق باليابانية.

وصلت الرسائل من رقم ما تعرفته ماري. حتى رمز المنطقة كان غير معروف عندها، وما أجدى أنها قلبت بين الرسائل بالعكس. لكن كان اثنان في الدنيا لا غير سموها ذاك الاسم، وأرقام إمجن العديدة (جوال نيويورك، جوال دي سي، المكتب، البيت) قد كانت كلها محفوظة في جهات اتصالها. إذن لا بد أنها بري.

في الصف السادس وفي شأن بري كان عند أم ماري هذه القولة لتقولها: ثلاث قد تتأزم. كانت تحكي عن تبدلات الصداقة الأنثوية، موضوع ما استساغت ماري الخوض فيه. عامة: رأت أن تحذيرات أمها على التثبت غلط لكنها بالمثل محال نسيانها؛ كشعارات الشامبو أو أغنيات التخييم. لما ذات ظهر جمعة في نوفمبر وجدت نفسها نازلة بين إمجن وبري في مقعد سيارة خلفي قاصداتٍ المول دودة الأذن هاته تلوت إلى السطح وخطر لها أن لأمها: ها.

كن على ما يرام.

تيار هواء رقيق هب عليهن، والراديو شغل أغنية عرفن غالب كلماتها. بري كانت تقول إنه ينبغي عليهن ابتياع تذاكرهن قبل الإتيان بالطعام في حال كانت تذاكر الفلم مباعة، وإمجن كانت تقول أن كلب ينتظر على الناصية ليعبر شابه كثير نسخة أضخم، أوبر من كلبها هيمش. تلعن جميع رؤوسهن لينظرن إلى الكلب. كان في وسع ماري أن تندفع بغتة في أي حين بتعليق مضحك أو عابث لو أنه خطر لها، لكن إن ما كان فما تعينت عليها قولة البتة.

قد صادقت إمجن ماري مطلع الصف الثاني؛ لما كانت ماري البنت الجديدة في الصف وما من سواها. مرت سنون ثم وصلت بري، مع مجموعة من بنات ثانيات في الصف السادس. منهن كلهن انتقت إمجن بري؛ لعلل ما وضحن لماري. ارتدت بري نظارة ذراعاها بلاستيكيان ملونان هوت كنظارة سكرتيرة. كان لها شعر بني قصير وجذع دَّشْهَند قصير، دون حقو. في أول يوم مدرسي ظهرت وعليها بلوزة شرشيرية مرشوشة بالصباغ رشًا شديدًا، لباس علوي قالت السيدة شميت أنه كان صارخًا. بدا كأنها جاهزة من متجر لا مصنوعة في البيت؛ كشيء قد ادخرت له.

ركبت بري الترام من بلدة سميت ريڤير بترخيص نقل طالب تدلى من قيطان حوالي عنقها، الذي نزعته كل صبيحة ودسته محاذرة في حقيبة كتبها إذ ولجت المبنى. في حجرة الثياب قد سمعت ماري من البنات من ينطقن ريڤير "رو-ڤييه-ا" ليضاحكن بعضهن بعضًا ويتسلين؛ وهكذا عرفت أن ريڤير كانت محلًا مكروهًا، يسكنها الذين ما استطاعوا إلى إدراك ثقل لهجتهم وغلظتها سبيلًا. إلا أن بري ما نطقتها على ذاك النحو؛ تحدثت في عجل وسداد ودون لكنة تشوب لسناها، مشاركة في الصف في سعادة ملموسة أيًا كانت المادة. كانت "ألمعية"؛ أبصرتها ماري باكرًا، والتي ربما كانت العلة التي جعلت لإمجن عناية بها. أي بنت في مدرستهن كان عليها أن تكون ذكية، أو حسنة الترتيب أقله، لكن ليس جملة فيهن، ولا حتى قلة منهن كانت لها مُكنة وسَورة.

للتبيين: ما كانت بري درّاسة أشد ما يكون أو مستحوذة عليها مساعٍ وطلوب دماغية، ولا كانتا إمجن وماري. ما قرأن روايات روسية أو تتبعن الجاريات من الوقائع أو فككنا الإلكترونيات ليتبين كيفية عملها. معًا درن في المول وتحدثنا عن معلماتهن وتوقفنا بين الفينة والفينة ليدخلن محلًا ويلمسن ما أردن من الحاجيات ابتياعه. أكلن زبادي مجمد حلزوني شكله وثم شاهدن فلم ناجحًا طافحًا بالقبلات الفرنسية ومعارك بالأسلحة. لكن لو أن مرأى مستخلص لافندر نباتي ملفوف حوالي لوح صابون ليُوقع على حين غرة في نفس ماري وقعة نشوى ولو هنيهة، غنية كأنها إليانور آكيتاين، ثم لو أنها رجعت البيت وسحبت من على رف كتب الطبخ مرشدًا مصورًا للأعشاب القروسطية منه نسخت باذلة الجهد على قصاصات ورقيات صغيرات خواص واستعمالات الحزنبل، البابونج، حبق الراعي، وحشيشة الكلب، ثم غطست القصاصات الورقية في شاي وجففتها برانيًا لتجعلها كأنها أقرب إلى رق، ما كانت إمجن ولا بري ليعجبا من فعلتها. لا أنهما كانتا لتفعل أبدًا فعلتها؛ ما كانت الأعشاب تستلفتهما ولا تستحثهما. ما كان منهما إلا أنهما لستفهما -في غير الكلام- الباعث على فعلها.

تلك كانت الجامعة بين ثلاثتهن. خلا تلك ماري وبري كانت قصيرتا القامة وإمجن طويلتها. إمجن وبري كانت بيضاوان وماري يابانية. بري سكنت في ريڤير وإمجن وماري لا. كانت فروقاتهن موزعة على حد سوى، لكن لما لمحت ماري انعكاسهن ينسبن جائزات بزجاج واجهة محل شامل أبصرت

صُراحًا أن إمجن كانت من جنس ثانٍ بكليتها؛ كإلف غابة بين أقزام، أو إنسي يرافق هوبت. سطع شعرها في النور الكتيم المنسكب من الردهة. كتفاها كانا مُستدان، وعنقها طويل. إن ضحكت فغرت فمها فغرًا، ووسعك أن تبصر كل سن من أسنانها القويمة، السنية. ما أصابها تسوس واحد. لكن بعض الأحايين كان في نَفَسها دنوًا طفيف نتن؛ دقيقة كان عليك أن تكون قرينها لتعرفها، لأنها عند البقية الباقية من الدنيا ما كانت سوى هذه المخلوقة الوقادة جائزة، تضحك، رأسها يسمق فوق رأسي الأخريتين.

فيم تحادثن؟

"سيجعلوننا نركض الميل الأسبوع التلو".

"من خبرك؟"

"كوتش بِل".

"أحب كوتش بِل. أرجو لو أنها في جدولنا أكثر".

"لا أقدر عليها. سأموت. سأقع من الإجهاد، وعندها سيجربون إنعاشي في طرف الملعب ويتفطنون أني ميتة".

"ماذا لو سرنا؟ يعني سيرًا سريعًا؟ أو هرولنا وئيدًا وثم سرنا؟"

"السنة الماضية جربت تلك، لكن الكوتش بودرو هددتني وقالت إنها لستجعلني أقطع الميل كله تارة ثانية إن ما أخذت بالتحرك".

"التحرك وفي النفس *مُلحة أعظم*".

"تلك علة قولتكن هاته على الدوام؟"

"هي أحرزت ثاني أسرع قطعة في الصف. وكان عندها برد".

"شانن كانت أسرع مني كثيرًا، ما كانت حتى مقاربة".

"لا أحب توقيتي. أحس كأني خيل سباق".

"إني أقرب لبقرة. البقر تتحرك على هواها في الخطو".

"علينا أن نخبرهم أننا بقر وأن الركض ليس في طبعنا".

"الركض *ميلًا*. ذاك خطر على بقرة".

"لا تقولا ذاك. لستما ببقر. أنتما ألطف من البقر".

وهكذا دواليك.

ما قد كان لماري صحبة جديدة في أمد طويل حتى أنها قد كادت تنسى كيف يكون حال قصد بيت أحدهم أول مرة؛ صدمة الحواس التي ما منها مفر. الرائحة فوقهن كلهن: لا غير مستحبة إنما غير مألوفة. كانت السنة الدراسية دنت من ختامها لما دعتهما بري، وتبين أنها سكنت الجنبة اليمين من منزل ملبس بألواح تترمد له كان جنبة يسرى طبقها حيث سكنت أسرة ثانية. قُلْبَةُ درج إسمنتي قامت من الرصيف، وفي ذروتها كانت سقيفة إسمنتية سطحية، وهناك كان بابان أماميان؛ طبق بعضهما البعض حتى في أكرتي البابين الخارجيين؛ أي أن بابًا انفتح إلى اليسار والثاني إلى اليمين. محشورًا وراء الباب الخارجي على اليسار كانت فزاعة تحمل لوحة عليها عبارة "*مرحبًا*" بألوان خريفية. "ما عدنا نحادثهم" همست بري إذ استخرجت قيطانها الذي حمل مع ترخيص الترام مفاتيح بيتها. "حكاية طويلة".

فتحت الباب، وبرانيًا نزت رائحة بيتها؛ غامضة إنما نفاذة، تذكر قليلًا برائحة حساء نودلز الدجاج في صفيحة. ما لبثت أن زالت. كان عند بري تلفزيون كبلي، سمكة استوائية، وغطاء مرحاض مغطى بكسوة خمري لونها. تفاوضت ثلاثتهن في أي قناة سيشاهدن، وكان في النفس على نحو ما أنه أيسر أن يكون الواحد يسرًا وسمحًا لما كان في المفاوضة أكثر من اوحد. إذ كن يأكلون حبوب الفطور ويشاهدن مقاطع موسيقية طلعت أم بري، تحمل أخت بري الأصغر –بقن– على يدها، ومع أن أم بري بدت كأنها في نحو السن المناسبة لتكون أم بقن –التي كانت في الرابعة– ما بدت كأن منها بري، ولو أن لها كثيرًا من نفس القسمات الناعمة، التي لا شكل لها. فبربطة شعرها ذيل الحصان

وحذائها الرياضي المخدش بدت أقرب لأخت كبرى، كأنها الأخت الأكبر في أسرة خوات يعولن نفسهن إثر أن مات أبواهن في حادث سيارة مفجع. أو ربما أبوا ماري وإمجن كانوا مسنين ليس إلا. ما حضر ماري رؤيتهما ينتعلان أحذية تنس في غير لعبه. "خذن راحتكن يا بنات" قالت أم بري لهن، في رسمية غريبة، وواكبت بقن إلى فوق لاستحمامة.

هبطت العتمة، وبري قالت بخبز كيكة. جعلت وقعها كأنها قد خطرت لها توًا، لكنها في المطبخ طلعت الوعاء والخلاط اليدوي والأكواب المعيارية وخليط الكيك من خزانة واحدة، كلها جاهزة للاستخدام، وامتلأت نفسي ماري على حين غرة برقة بالغة حتى أن عينيها تخضلتا. كان الخليط من علامة دَنكن هينز والنكهة كانت –في إبهام– "صفراء". في بيت ماري ما قُبل كيكًا كان إسفنجيًا يكاد يكون تفهًا ابتاعته أمها من المخبز الياباني وثم استحثت الضيوف على تذوقه، محاجة بأنه كان "ما أخفه" و"وغير مفرط في الحلاوة". لما بري أفرغت الخليط الأصفر في الوعاء انبعثت منه سحابة على شكل فطرة من المواد الصناعية السكرية جعلت ماري تختنق. إمجن جثمت على النضد وشرّحت الهواء بمكشطة بلاستيكية، كما لو أنها تصرع أعداءً. ما جربت أن يكون لها ضلع في شيء. بدت أنها في طور المسالمة إذ تبعت ماري وبري التعليمات على العلبة، ولما دُفعت صواني الكيك ترتعش فيها الزبدة إلى الفرن فتحت ذراعيها لتتلقى وعاء الخلط الفارغ.

"أوه حلو" قالت. "تركتما الكثير على الجوانب". من غير تردد غمست المبسط في الوعاء، دورته في نواحيه، رفعته، وأدخلت امتداده المقاطر كله في فمها. طلع نظيفًا. "شاركي" قالت بري. كشطت إمجن الوعاء ثانية وشاهدت ماري رأس المبسط المغرق يختفي في فم بري.

ثالث مرة غمست إمجن في الوعاء قدمت المبسط لماري.

"لا، شكرًا" قالت ماري في رفق، وتراجعت. عن عمد ما قالت ما أرادت قوله، ما كان رأس ما اعتمل في ذهنها، ما قد تحدثت عنه أمها عينًا منذرة بسوء: السالمونيلا. لأن أمها كانت غالبًا على خطأ. فأمها قد افترضت على سبيل المثال لأن بري كانت أكبر من أختها بثماني سنين فلا بد أن في الأمر "أبوين مختلفين"؛ على ما صاغتها. في النبرة المراعية الكيسة التي نطقت بها كان ما جعل ماري

تريد خنقها. "هو الأب نفسه" قد أعلمت ماري في اقتضاب. "ولا تقلقي هو وأمها *متزوجان*. وأي نعم ستكون بالبيت طول وقت بقاءنا هناك".

"هو وأمها" قد أجابت أمها، إذ سرعان ما قد غطت ماري أذنيها وأطلقت أنة.

لكن ثلاث بيضات نيئات قد سقطت في تلألؤ في تلك العجينة، ثلاث بيضات نيئات غاصة الراجح بالبكتيريا، وإذ بمرأى الصفرة تنزلق على المبسط كان يورد ماري غثيانًا. ذاك ورائحة الحلاوة اللزجة. ومصابيح الفلوريسنت الطنانة في مطبخ بري. وكل اللعاب المدار به على الجميع مرسلًا.

حتى الساعة كانتا صاحبتاها تنظران في بعضهما البعض وتتبسمان. قد أدركتا صميم اعتراضها المتصنع. كمثل عُسْبُر وثبت إمجن نازلة النضد فيما سدت بري على ماري السبيل من الجنبة الثانية.

"بس جربي قليلًا" تمتمت إمجن. "ستحبينه".

ناولت المبسط لبري لكنها استبقت الوعاء، جارة إصبعه على طوله على جوانيه وثم مستخرجته؛ مغطى. دست الإصبع في فمها.

"هذه أحسن جزء" قالت بري. دورت المبسط دانية من وجه ماري. "صدقيني. لذيذ".

"لا أريد" قالت ماري من تحت ياقة تيشرتها، الذي قد رفعته فوق أنفها.

"قليلًا فقط" قالت إمجن. "ذوقة قليلة صغيرة". أخرجت بري لسانها وفي رقة ضغطت المبسط على حرفه. "رأيتِ؟" واصلت إمجن. "ستكون تلك القليلة. لن تكادي تحسين طعمها".

الفم مفتوح دفعت بري لسانها تدخله وتطلعه، تدخله وتطلعه، تدخله وتطلعه، في عجل. أين تعلمت فعل تلك؟ كان مرآها مزعجًا، كأنها على شاكلة فعلة لـ پرنس[2]. ظلت قطرة صفراء على طرف لسانها المرتعش. أمالت ماري رأسها جانبًا.

"أنتما تستحثانني". كان صوتها مكتومًا تحت التيشيرت. "لا أحب أكل العجين أو أن أُستحث أو أن أتقيأ الليل كله وأبيت في المستشفى".

"من أتى على ذكر التقيؤ؟"

دفعت تيشرتها تحت وحملقت فيهما. "ألو؛ سالمونيلا؟"

كان وقعها على نحو ما أقل عتهًا لما نطقت بها أمها. إمجن وبري نظرتا فيها، في غير نطق. ثم قهقهتا. "سالمونيلا؟" أعادتا. "سالمونيلا؟" التمعت عيونهن. نظرة فهم صموت مرت بين ثلاثتهن.

بتنهيدة انبعثت ماري متجاوزة إمجن واندفعت صوب حجرة التلفاز. طارتا في إثرها، منطلق عنانهما، عاجل خطو جواربهما على مشمع الأرضية. فوق الكنبة الجلدية الثلاثية وحواليها لاحقتها، محاذرتان حوض السمك المضيء، لا زاعق ولا ضاحك لأنه فوق بقن قد كانت نائمة. نَفَسهن المتثاقل طبق الحجرة ليس غير، ولما الاثنتين ثبتتاها آخرًا على الأرضية، وسعها أن تحس كيف أن صدورهن كلهن كانت تلهث حثيثًا، في تساوق، كأنهن قد جرين ميلًا سوية في خطو متوافق.

"عربات النار"[3] كان واحدًا في أحب خمس أفلام عندها. ولو أنها ما استحبت الجري بنفسها إلا أن منظر رجال بريطانيين يركضون كان شجيًا. متى ما أنشدوا "القدس"[4] في تجمع الصباح كانت هي وإمجن وبري لتسلين أنفسهن بتمثيل الكلمات خلسة: كن لتؤمن القبض على القوس، والرمح، والأسارير الإلهية تسطع خارجًا فوق التلال، وكن ليمسن النبرة الخفيضة في "سهام الرغبة" في إجلال زائف. لكن ومع أنهن عبثن ومزحن رأت ماري النشيد بديعًا بداعة مُسكتة. ذاك الشطر المشبوب – ائتنِ بعربة النار!"– حرك بواطن نفسها.

لما لمس عجين الكيك وجهها ما كان باردًا على ما حسبته سيكون؛ كان ملمسه غليظ ورطبًا لا أكثر. عيناها مغمضتين كانتا آنئذٍ. وفمها بالمثل لا محالة. لا شيء –لا دنكن هينز، أو بكتيريا يحملها البيض، أو أي شيء ليس لها — سيجوز تلك العتبة. شفتاها كانت مزمومتين في شدة وإحكام حتى أنهما توخزتا. ما كان داخل ولا خارج؛ أبقت نفسها مصانة، منيعة في وجه ثقل إمجن وبري الناهجتين فوقها. برضى أحست بدنيهما يخوران، طاقتهما تتبدد: كانتا تخيبان، وما كانت من حيلة الآن إلا تلطيخ وجه ماري بالعجين. حتى وعيناها مغمضتان وسعها أن تتبين متى كانت إمجن تفعلها ومتى بري. كمثل في "عربات النار" لما جرى الرجلان في أقصى سرعة إنما لعلتين متباينتين: الإسكتلندي لأنه صدق بالرب تصديقًا بالغًا، اليهودي لأنه أراد له محلًا وليري أنه كان خيرًا من كل معادي السامية اللذين لقيهم في الكلية. التمريرات الخاطفات اللامباليات على وجنتها– تلك كانت

إمجن؛ أن ما قد عاد لها عناية بالأمر برمته- لكن في التربيتات المصوبة دقيقة على جبينها، أنفها، فمها، ذقنها، أحست ما في عناية بري من عاطفة، إتقانها وحفلها.

بعد أن رفعتا نفسها عنها شقت ماري طريقها متخبطة إلى الحمام في الردهة، العينان ملوزتان والوجه دبق، وهنا كان لما تنسمت نفحة من الكيك الذي يخبز في الفرن. ما قد شمت كمثله شيئًا قبلًا قط. بادئًا ذكرها برائحة البلاي-دو [5] المغثية، التي قد كرهتها على الدوام، والحق أنها كرهتها أيما كره حتى أنها لما كانت صغيرة قد رفضت لمس الشيء، لكنها إذ استنشقت ثانية وجدت ما ينتشر تحت الحلاوة؛ رائحة تشبه رائحة الزبدة والبيض والفانيليا والطحين إنما ليست هي الحقيقة؛ رائحة كانت صناعية إنما مُسكرة بالمثل بل وفيها من الإسكار ما هو أشد إذ هي زيف. ما كان عليها أن تذوقه لتعرف قبلًا أي استحبابًا لهذا الكيك ستستحبه. أي طراوة سيكون وأي دفء، كيف أن الطعم الكيميائي الخفيف الذي يخلفه سيجعلها تستزيد. إذ هي تمسح وجهها فوق المغسلة عزمت على أن تخبر أمها أنها من اليوم فصاعدًا لن تبتغي ليوم ميلادها كيكًا عدا أصفرًا من علبة.

في منتصف الصف السابع سمعت ماري السمثِز [6] أول مرة، في برنامج راديو آخر الليل كان يشغل أكثر مطلوب من الأغنيات نهارًا. أُضطرت لتدفع مبلغًا إضافيًا لما ابتاعت أسطوانة الفرقة؛ لأنها كانت مستوردة من المملكة المتحدة: كان غلافها بالأزرق الهولندي وعليه صورة جانبية بالأبيض والأسود لرجل وسيم، عليه قميص بلا كمين؛ رجلٌ تبين أنها ليس من السمثِز، ولو كان شبيه طفيف بعازفهم الباس. مطبوعة في منتهى الصغر داخل غلاف الأسطوانة الداخلي كانت كلمة لكل أغنية، والتي منها عرفت أن الكلمات الصحيحة كانت: "I am the son and the heir" لا " I am the sun and the air" على ما قد خالت. أول أمرها اعتمل في نفسها أنها كانت غِرة أن سمعت الكلمات على هذا النحو، ثم خطر لها أن الالتباس ربما كان متعمدًا؛ أمارة عبقرية.

عقب أن ابتاعت ماري الأسطوانة صار السمثِز أهم شطر في معاشها. صاحبت فتاة في فصلها اسمها ميلني؛ لأن ميلني كانت الوحيدة التي ممن عرفت عرفهم. ليوم ميلاد ماري كتب ميلني رسالة تتظاهر فيها أن چوني مار -عازف الغيتار- يصرح بغرامها. متحدثة عن نفسها أشارت ميلني أن التشابه بين اسم ماري الأول واسم چوني الأخير لا يحصل أن يكون عرضيًا جملة.

ما كان في نفس إمجن ولا بري وقع على أي شاكلة للسمثِز: إمجن استحبت الروك الهادئ مع اللازمات المتصاعدة، وبري استمعت للموسيقا الراقصة التي أذاعتها الكِس 108[7]؛ لكنهما كانت صاحبتا ماري الأعز. تراوحت بين محاولتها تحويل إمجن وبري إلى ذائقتها الرفيعة وبين رغبتها في استبقاء السمثِز شأن مقدسًا يخصها. لكن أنى لك ألا تشارك ما استحوذ على شطر بالغ من ذهنك؟ حكت عن الفرقة يوميًا، وعلى أن صاحبتاها ما كانتا لتعرفا ضرورة أغنية من أغاني السمثِز لو أنها ما انفكت تعاد فوق رأسيهما وتزاد إلا أنه وسعهما استظهار أسماء أفراد الفرقة وآلاتهم ووسعهما تميزهم في الصور؛ عرفتا الساعة أن مَنشستِر ما كانت مدينة في نيو هَمپشِر وحسب بل ومثلها في شمالي إنجلترا، أنه ما كان شيءٌ ألذ عند مورسي من قصد القرطاسية وشمشمة الأظرف. سارتا في أعقاب ماري وتناوبتنا على حمل حقيبة كتبها إذ طافت في ممرات الپاين برذرز تتنشق، تكشط رزم من الورق بأطراف أصابعها، محاولة بحواسها أن تنقل نفسها إلى بقعة ثانية.

لما ما أجدى ذاك قصدن المحل على الجنبة القبالة من الطريق ليحضرن بيتزا. كان في وسع كل واحدة أن تطلب للباقيات: بري أخذت على الدوام سجق وفطر وسبرايت حجم وسط. إمجن استحبت الهاوايان، صنفها المفضل من اللحم هو المقدد الكندي، إلا أن دينوز ما قدم تلك شريحة؛ كان عليك أن تطلب البيتزا كاملة. أما شريحةً قد أخذت البيبروني، ما دام ما كان زيتٌ كثيرٌ يسبح على قطع البيبروني. ماري قد انقطعت عن أكل الحيوانات وما أرادت سوى شريحتي جبن وكأس ماء، الذي كان مجانًا. من غير داعٍ للتشاور اتجهن إلى المقصورة في الركن الخلفي؛ فيكون لبري النظر في الجدار المكسو بالخشب والتنعم بصور لاعب البيسبول الموقعة الذي شابه بروس بوكسلتنز؛ نجم "الفزاعة والسيدة كنج"[8]. ذاك كان مسلسلها التلفزيوني المفضل، كما كان عند إمجن "خطر!"[9]، كما كان عند ماري "مسرح الرائعة"[10].

المعارف اللاتي كنا فيها متمكنات كانت لتملأ وحدة تخزين ملفات ذات ثلاث أدراج: السن الذي فيه خُرمت الأذنين، تاريخ العظام المكسورة ووقعات الندوب ومحدثها، علامة آخر اختبار رياضيات، كابوس متكرر، كلمات مفضلات بالفرنسية، أجزاء الجسم المهملة، آخر كتاب مقروء، مفخرة سرية، مزعجة دآبة، أسماء التدليع، روائح مزيلات رائحة العرق وبلاسم الشعر.

كانت بالمثل أمورٌ عن بعضهن البعض ما عرفنها.

مثلًا: ماري جاءتها الدورة في الصف السادس، قبل أن تبلغ الثانية عشر. إذ طلعت من الحمام – واعية، تسير سيرًا غريبًا، في نفسها يأس– كانت أمها قد هاتفت أباها (كان في العمل) وجدتيها (كاليفورنيا، أوهايو) لتعلمهم الخبر. من يومها ما حدثت ماري بأمر دورتها أحدًا. في كتمان حملت معها اللوازم الضروريات في محفظة قطنية بسيطة على شكل فأر. قد وقعت عليها في درج تسريحة أمها العلوي؛ مأوى الأوشحة والمناديل والهدايا التي ما لها نفع الآتية من حينٍ إلى حين من أقارب في اليابان. كان فأرًا مجردًا، على شكل دمعة، وبوصات معدودات من شريط حريري ممتد من تحت و– حيث طرف أنفه لسيكون – إبزيم منفرد. إذ هذا الإبزيم هو سبيل الإغلاق الوحيدة التي من غيرها ففأر فاغر الفاه ما كان للمحفظة أن تحمل الكثير محفوظًا: لا مالًا أو مكياجًا ولا ريب لا مجوهرات، لا شيء صغير. لكن ماري وجدت أنها أجدت كفاية مع الفوط، والحق أن الفوط جعلت الفأر يبدو كأنه بدين، لكأنه دمية محشوة، وسرعان ما صار منظره واكنًا في حقيبة كتبها ما عاد يوردها أي إحراج، وعليه آخرًا، إثر سنة، لما قد ترقت إلى السدادات القطنة استبقت هاته مع الفوط جواني الفأر، الذي كان آنئذٍ قد فقد ذيله.

ذات ظهر شتوي إذ كان الصف السابع يحزم حافظاته في الدقائق الأخيرات قبل رنين الجرس انقلبت حقيبة كتب ماري على الأرضية، وقوة السقطة أرسلت الفأر أبتر الذيل مبحرًا براني حقيبتها كقذيفة، الأنف أولًا؛ سدادة منفردة رفيع حجمها طلعت منقذفة من فم الفأر المفتوح. كانت كواحدة من هاته المفرقعات النارية التي لا تفرقع إلا لتكشف عن فرقعة ثانية أصغر جوانيها. انزلقت السدادة عبر أرضية الفصل دون ثبات، وماري راقبت رحلتها في رعب مجمد. ما كان أدنى فرق أن مدرستها كانت للبنات وحسب. فالبنات في فصلها رأين الدورة مقززة: انظرن كيف قد عذب أحد هولي ماينَرد بترك فوطة كأنها مستعملة، مصبوغة بالأحمر بقلم تلوين، على مقعد كرسيها.

لكن ثلاث صفوف قبل ماري كان بدن بري المتين كبدن دَّشْهَند، الذي حدث أن كان منحنيًا تحت في صبر لاسترداد قلم تخطيط من تحت طاولتها إذ أتت سدادة ماري منزلقة صوبها؛ اغترفتها، دستها تحت كم بلوزتها، وعادت فقعدت دون نظرة فيما حواليها لترى من حيث قد تكون أتت.

خرت ماري على ركبتيها لتسترد فأرها، وبري انحنت ثانية لتلتقط قلم التخطيط عن حق، وهناك بين سيقان الكراسي والطاولات وزملاء الصف تلاقت أعينهما. مشيرة إلى المحفظة القطنية المقبوضة في يد ماري فاهت بري: "عنديها".

عقب الجرس الأخير وجدتا نفسيهما تضحكان في انفلات في الحمام الخلو قبالة مكتب القبول. بري قد كان لديها سدادة ماري وبالمثل قد كانت أتتها الدورة –لا ساعتئذٍ عينًا إنما نالت نصيبها– وقد كانت أتتها بالمثل السنة الفارطة. في فبراير. أسابيع إثر ماري لا أكثر. أنى كانتا حمقاوان حماقة مطبقة هكذا؟ ضحكهما جعلهما تستندان على بعضيهما لتتوازنا. "أتذكرين لما قلتُ إن الجيروز من ساعة الغداء كانت توجع معدتي؟" سألت بري. "تلك كانت تشنجات!" كانت ماري تضحك ضحكًا شديدًا حتى ما وسعها التنفس. أن تنظر في أنهما قد كانتا تكابدان في صمت، جنبًا إلى جنب، سحابة هذا الوقت: وقع في نفسها كأنه أحزن وقعة مرت بهما وأطرفها على حد سواء. إذ مسحت بري عينيها ببلوزتها سألت: "أسنخبر إمجن؟" لكن قبل أن قد حتى استتمت سؤالها كانت تقول وماري في الحين نفسه: "لا".

كان عسيرًا تخيل أن لإمجن أفعالًا جسمانية. قد سمعتاها لا محالة في غير مرة تتبول في المبولة الجنب، غير أن الفتاة التي ظهرت بعد ثوانٍ معدودات ظهرت من ذاك الصوت براء. حمامها بالبيت كان طاهرًا: على المغسلة كان لوح صابون، فِرْشاةٌ هُلْبية من شعر العفر، أنبوب معجون أسنان بيكربونات الصودا. كان للبروسلين منظر محبب رقيق؛ مرده إلى التقادم والمنظفات الكاشطات. كُويب فضي مكدر حمل فرشاة أسنان إمجن، وعلى أنه بدا كأنه أثرية من العصر القيكتوري، كغرض قد تقع عليه في خزانة زجاجية، استعملته كل صباح ومساء لما فرشت أسنانها. على حرفه كان أثارة معدنية كالهلال في شكلها باهتة.

منزل إمجن كان ملآنًا بأغراض من هذا القبيل. فيه كان كركدن جلدي خفيض، طوليًا طولًا كافيًا ليُقعد عليه، و "ليبرتي أوف لندن" مختومة تحتاني أذنه. كانت عينة مطرزة بالإبرة معلقة على الجدار مكتوبًا عليها: "الأطفال غير مسرورين بأن ما عندهم ما عنه يعرضون/ وذاك ما كان الأبوان مخلوقان له". كانت مجموعة من كتب إدورد غوري [11]؛ لا التجاميع ذات الأغلفة الورقية الضخمة التي

ملكتها ماري، بل الطبعات الأصل لغير واحد من الأحجام الصغار، ولها حوافظ بألوان الجواهر: "Doubtful Guest," "The Hapless Child," "The Epiplectic Bicycle," "The Glorious Nosebleed." قانون وطبلة كان. أكوار منحوتة يدوية جنب المدفأة. شموع لونها أزرق غامق، في شمعدانات بيوترية، كانت تشعل كل ليلة ساعة العشاء. ومِطفئة شموع أيضًا.

غامرًا كل شيء ومغطيه كانت رائحة دخان الحطب الخابية من المدفأة، ورائحة أفرع الأُكَالِبْتُوس في دوارق طينية الأنفذ. وفوق تلك لما أتى في بلل من الخارج رائحة هيمش النتنة.

هيمش كان كلب إمجن التَّرْيَر الكَيرن، وكان لها بالمثل أخٌ اسمه نيكولاس. كان أسن من إمجن بسنتين ونصف. كان ضخمًا وأشعث ووسيم، غير رياضي لكن مساعد كابتن فريق المناظرة في مدرسته. عند ماري التي ما لها أشقاء كان حضوره شادهًا قليلًا. لو أنهما تصادفا في المطبخ كان ليحييها بابتسامة مشتعلة ولعلعة: "مرحبًا أنتِ!" لكن في إثرها ما كان عنده قولة أزيد. كانا ليمضيا في شأنيهما في صمت ودود. راغبة أن تحس كأنها چوني مار سألت ذات مرة نيكولاس لو أن له أن يريها كيف تعزف نغمة في غيتاره، وعقب هنيهة موترة من مغالبة يدها لتكون في محلها قال آخرًا: "ها. كأن لك أصابع قصيرة ثخينة، ألستِ".

لما صادقتهما بري بادئًا كان في غير تكلف ولا تقيد في أمر نيكولاس. أحرجت إمجن وماري بأن تصرفت في سخف إذ أن فارق الحجرة: هازة رأسها في غير تصديق، مهوية وجهها بيدها. آخرًا تداركت الأمر وأمسكت، أو توقفت أقله عن فعلها أمامهما. لكن ذاك ما عنى أن التبجيل في نفسها قد تبدل. في المدرسة إبان الفسح أوسط النهار استحبت مليني إنعاش الوضع وإهاجه بقصد طاولات الغداء وحمل كل بنت على الكشف عن هوية مفتونها، ولما حان دورها كانت بري لتمسك، تخفض بصرها نحو صينيتها، تجاهد ألا تبسم. "لا أحد" كان ليكون جوابها المتلعثم؛ افتعالة كانت مضجرة ماري مشاهدتها. ما وسعها إلا أن تتصور ما أرداها كانت عند إمجن.

مع ذاك ما انفكت إمجن عن دعوتهما؛ لا دعوتهما بمعنى الكلمة لأن الدعوة كانت تفصيلة ما عاد لها داعٍ، إنما قبول أنهما في أي نهاية أسبوع كانت بري وماري لتأتيا عندها وقضي الأمر. لما صرن في

الصف الثامن قد اتفقن اتفاقًا ضمنيًا أنه من البيوت الثلاث كان بيت إمجن الذي فضلن: أقرب للمدرسة، الأريح، الأكنكن، أبواها على ما يظهر مبتهجان بغلوائهن. ما انفكت حجرة مؤن بيت إمجن عامرة وهذا كان عجابًا. كل ظهر جمعة كن ليجدنها مُلأت ثانية بوجبات خفيفات أحببنها: فشار بنكهة الجبن، رقائق بطاطس مطبوخة، بسكوت الشوكلاتة الداكنة وعليه صورة تلميذ المدرسة الفرنسي مطبوع عليه. لا برتقال أو موز ذابلٌ في صحن الفاكهة على النضد، بل سلة فراولة مغسولة تبدر في الثلاجة، أو مكعبات أنانس طازج تقطيعها؛ والتي ما كن لترددن في مد أيديهن إليها، معتمل في أنفسهن أنهن نلن من الطعام الصحي نصيبًا قبل أن يطلبن بالهاتف ما يطلبن من دينوز.

ما تذمر أبو إمجن من إيصالهن إلى محل تأجير الفيديو، حيث البت كان طويلًا وعسيرًا؛ فماري ماضية لحالها لتتفحص العناوين القديمة وتفتش فيها بحثًا عن: "A Taste of Honey " أو " Billy Liar" سواهما حول الترعرع من الطبقة العاملة في شمالي إنجلترا، وإمجن وبري يتقفيان أثرها في مؤخرة المحل ليقولا لها بأن فلم الأبيض الأسود الوحيد الذي لستقبلا مشاهدته كان " Psycho". كانت ماري في قلب تزكية حسها؛ مسعى وحداني في جوهره، إنما استحبت فعلها على مسمع من أصوات مألوفات في قسم الكوميديا على مبعدة ممرات معدودات.

ما كانت وحدها في تحري عزمات سريات، جاريات. قد صار محالًا إنكار أن طلعة بري كانت تتبدل. النظارة اختفت؛ قد رق أبواها آخرًا ورأياها جاهزة للعدسات اللاصقة. شعرها –الذي قد كانت تطيله انقلب في شقرة بين عشية وضحاها أو "صنكست"[12] على ما سمته هي في مزاح؛ "كالصودا". صوبت أي واحد قال بأنها قد صبغته، مبينة أن عصير الليمون طبيعي بل ونافع لك. على أنها ظلت قصيرة قامتها كمثل ماري فقد صارت رقيقة الخصر في إرباك، وكانت الساعة تسلك مسلك النحيلة –تلبس بلايز ذات أشرطة نحيلة كالسباغيتي، تحز سيقان بناطيلها الجينز القديمة– وإذ جهدت ماري ألا تأخذها على محمل الجد فقد خبرت وخزة هجر بين الفينة والفينة. ما عادت "بقرة" واردة بصيغة الجمع الودود.

ما أفلحت كل تحسينات بري لنفسها. فذات صباح وصلت المدرسة وفيها تبدل ما وسع ماري تعيينه.

"حاجباي" قالت بري. "تمسكين قلم رصاص على طول جنبة أنفك وحيث يلتقي أنفك بحاجك هو المحل الذي منه تبدأين النتف".

أخذت قلم رصاص أصفر من جواني منضدتها وضغطته على وجنتها لتبين. الساعة أبصرت ماري ما كان غريبًا في وجه بري. سألت: "أيفترض أن تنتفي من جنبة القلم أو من *هذه* الجنبة؟" ولمست الفرجة بين حاجبي بري لتري حيث قصدت.

"أوههههه" زفرت بري، مخلية القلم يسقط. "عجبت لم ما شابه حاجباي الصورة. تقولين إنهما متباعدان كثيرًا". تبسمت في ثبات جأش لماري. "لكن ذاك هو غرض المكياج، صح؟ يعني دائمًا أن لي تكثيرهما به".

ما ثبطت شدة التبدل وصرامته بري. إذ احتاج تجربة وخطأ، انكبابًا، وتعهدًا مُداومًا. فقد تعودت لا حلق ساقياها وإبطيها وحسب بل ومشطي قدميها، وخط البيكيني، و- الذي وقع في نفس ماري أنما هي فعلة غريبة- ساعديها. قد خرجت بطريقة لعزل أشد ما ازدرت من أجزاء جسدها — ما سمته في برود عرعرة إلا أنه ما كان سوى طفيف رخاوة؛ غياب تعريف بسيط- بغير قبض للعضلات. "كمثل شفط معدتك" شرحت "لكن إنما أشفط الشطر الذي تحت ذقني".

اعترفت ماري أنها ما قد فطنت، وأن -في رأيها- ذقن بري، فكها كانا يبدوان على خير ما يرام وفيها على أكمل وجه.

"ذاك لأني أشفطه *طوال الوقت*" قالت بري. "إني أجعله يبدو على ما يرام".

ما كان لإمجن غالبًا ضلع في هاته الأحاديث. ما انطوى صمتها على مأخذ، أو تحرج، ولا أظهرت في مأتاها تململًا. بدا كما لو أنها قد تنحت هنيهة في أدب. الحق أنها كأنها أعفت نفسها جملة وتفصيلًا من النزاع؛ المجاهيد المستنزفة، المحمومة لابتداع نفس. ما انفكت على طلعة الفتاة التي قد صاحبت ماري في الصف الثاني، وبري في السادس -الشعر المنسدل الكثيف نفسه، الأسنان المصفوفة والجسد النحيل والبشرة الآخاذة نفسها- عدا أنها صارت أطول قامة لا محالة. استحبت أمورًا معينات لكنها ما كانت نزاعة للاستحواذ. عُرف عنها أن أجادت في الرياضات، والغناء في

الرنان بصوت صافٍ، وترأس المجلس الطلابي ببراعة كبراعة مجلس الوزراء. كانت متشوفة للآخرين وشأنهم. وسعها حساب مسائل رياضية ملتبسة ذهنيًا. كان لها ضحكة وقعها بهيج، عفوية، كأنها رنة جرس. لما تأنت ماري لتنظر في الأمر كان شعورها بالعجب في غير خفوت: كيف واتها سعد بالغ لتكون إمجن صاحبتها؟

لكن في الصف الثامن كان في إمجن شأن ما استطاعت ماري أن تسبر غوره — أن أبت سؤالها عنه، أن كان بغتة أعظم وأدق من الشعور به من وقعة حاجبي بري– أمرٌ كان له شأن بشعورها بأن إمجن تصطنع انكفاء لا يُدرك. لا يُدرك لأنها كانت لا تزال في صميم كل شيء متأصلة: فالنهار في المدرسة كان دون معنى من غيرها، نهاية الأسبوع طامسة إن ما قضي في بيتها. لكن إمجن شغلت هذا المحل فيما جعلت نفسها بالمثل غائبة. أحيانًا لا مجازًا: ذات ظهر جمعة أفزعت ماري وبري بطلعتها في مطبخها متسربلة بملابس النادي التي قد أتت بها البيت في نهاية الأسبوع لتُغسل. مرت بهما –كانتا واقفتان في حجرة المؤن، تفتحان علبة جديدة من البيته إكولييه[13]– وقصدت الباب الخلفي. "أين أنتِ ذاهبة؟ صاحتا في إثرها. "للركض" ردت الصيحة. "وحدك؟" سألت ماري في شك. "تسلية؟" غير أن إمجن ما سمعتها؛ قد كان الباب يتأرجح منغلقًا.

مع ذاك كانت إمجن؛ رقت وجادلت وأغاظت؛ أعدت لحفلات أيام الميلاد، بدأت مسابقة لأكل الكوكيز، أطبقت السيارة أو حجرة التبديل أو المطبخ بضحكتها. في الحين نفسه كانت في محل ثانٍ، وماري ما استطاعت أن تتبين أكانت نظرتها مصوبة جوانيًا أم مرميًا بها بقعة قصية في النائي كانت وراء قدرة ماري على الإبصار.

كابدت ماري غير شهر عدم التيقن أكانت وصاحبتيها سيرتدن الثانوية سوية. الدنيا على ما عرفتها صارت بغتة كأنها وقتية. قالت بري بأن أهلها كانوا لا يزالون ينتظرون أكانت المدرسة ستمنحهم معاونة مالية زيادة، وكان سؤال أي مدرسة ستقصد بقن؛ رسوم إضافية واردة. "ألا يضعانها في مدرسة حكومية حتى الصف السادس؟" سألت ماري. "كما فعلا معكِ؟" أن لإمجن شقيق كانت بالمثل ستصير عقبة؛ لما أن أبواها كانا سيجعلانها تقدم على المدرسة الداخلية حيث كان سيمضي نيكولاس لسنته الأخيرة؛ من المبدأ المضجر: تقليب النظر في كل خيارات الواحد. "لكن لم في ظل

شخص ثانٍ؟" قالت ماري. أما ماري فما أرادت أن تكون الوحيدة الباقية لأجل الاستمرار. كانت تهدد بالالتحاق بثانويتها المحلية وتجربة حظها بأن تصير في البرنامج البديل حيث كان للطلاب التصويت على ما يجري ومناداة أستاذتها بالأسماء الأولى؛ تهديدٌ حبطت أمها جملة في وزنها جملة أيما وزن.

آخرًا أجمعت ماري وإمجن وبري على لزوم مدرستهن؛ انشراحة كان وقعها في النفس قليلًا كمثل حكم بالسجن. أربع سنوات زيادة من الكل بنات؛ وبالرغم من الوعد بمؤتمرات قيادة مشتركة وطلعات لخدمة المجتمع، أو الحفل الموسيقي الربيعي السنوي مع ما يُسمى مدرستهم الأخ، كان هذا كأنه دهر.

بدأ سؤال كيف وأين لقاء الصبيان يدور بين زميلاتهن، وفي سعة حيلة استفتحت بري الصيف بالعثور على واحد في باحتها الخلفية. ماري وإمجن كانتا قاعدتين متربعتين على أرضية حجرة إمجن، تأكلان ألواح فواكه مجمدة لما خبرتهما بري. كان اسمه ألكس، في الخامسة عشرة، وسكن الشطر الثاني من منزلها.

"أنتما لا تفهمان" قالت. "أبواي ليس كمثل آبائكما. لما أقول إنهما سيقتلانني لا أحكي مجازًا. *سيقتلانني*".

"لكن كل ما قاله كان مرحبًا" أبانت ماري.

"وتبسم" قالت بري. "وثم نزع كنزته".

"تلك فعلة أريد على الدوام أن أفعلها" قالت إمجن "لما الجو حار وأنا ألعب كرة سلة".

"الأمر أنه" قالت بري "ما قد بدأ يلعب بعد".

قد كانت ماري في باحة بري الخلفية مرات معدودات ليس إلا؛ لأنها ما كانت عن حق باحة خلفية، بل أقرب إلى منطقة مرصوفة حيث أمكن ركن السيارات. في أحد أطرافها نصبت شبكة كرة سلة. سقيفتا خشب عريضتان علقتا من مؤخرة البيت وأطلتا على السيارات المركونة، أو لم كانت أي

سيارة، شبه باحة مؤقتة. السقيفة في الطابق الأول كانت لأهل بري، وفيها حيث استبقوا الهيبَتشي[14] وبق ويل[15] بقن، مع مشايتها القديمة وقلعة اللعب ولوازم أطفال ثانية مهجورة.

"كيف ما فطنتِ له قبل؟" سألت ماري.

"فعلت. كان أقصر حينئذٍ ومكتنزًا قليلًا. هم أربع. تسميهم ماما الحضنة. حري بك سماعهم ينزلون الدرج صباحًا". مسحت بري قطرة من الفراولة الذائبة من على امتداد ساقها الجرداء. "هو ليس الأكبر لكنه الأطول. في الشتاء طالت قامته. والساعة هو يتمرن طيلة الوقت برانيًا في الخلف. لا مع بقية الأطفال؛ وحده".

تحينت ماري لترى إن أرادت إمجن قولة. هي نفسها صعب عليها التحدث بالنبرة البهيرة التي كأن بري كانت تتوقعها منهما. آخرًا قالت: "لا أظن أنه من شيء ليقلق أبواك بشأنه. ذاك عادي، أليس، أن يحي جار. إني أحيي جيراننا كل يوم".

تبسمت بري، تكاد بسمتها تكون في حزن من سذاجة ماري العريضة. "هذا شأن ثانٍ" قالت. "شأن ثانٍ كلية".

"بسبب خلعه كنزته؟"

"لا" قالت بري. "بسبب النحو الذي عليه نظر فيّ".

"وكيف كان ذاك؟" (ما زادت ماري "تحديدًا" لكنها أرادت). ما استطاعت بري التعبير عنه، قالت. كانت خالجة وحسب. جيئة وذهابًا. شعلة. عبست من ضعف عباراتها. "وقعه كأنه اعتباطي" قالت "لكن فيه شبه من حين توشك أن تؤدي اختبارًا وتقلب الورقة وتقرأ أول سؤال وتعرف من فورك الجواب، وتعرف أنه صواب؟ إنه ذاك الإحساس في نفسك حين *تعرف* أنك تعرفه".

أحست ماري صدرها يضيق إذ تحدثت بري. قذفت عصا مصاصتها في جوار سلة القمامة، على حين غرة دخلت فيها. جهدت لتستدعي علة أن أهل بري ما عادوا يحادثون جيرانهم. أكان

الضجيج؟ أم أمر ذي شأن بكلب؟ بيتبول؟ ولا قدرت على تذكرٍ بينٍ من أين جاؤوا ولو أنها على يقين أنه كان محل أول حرف فيه "ك". كانوا إما من كابو فيرديين أو كولمبيين. أو ربما كمبوديين.

كانت بري تقول: "وسعني أن أخبر من مسلكه أنه استطاع أن يحسني أنظر إليه".

"أخذ يفوت السلة؟" سألت إمجن.

"لا شيء بذاك الجلاء. ولو أنه فوت معدودات. كان أقرب لأنه أخذ يمشي ويتحرك على نحو مختلف، أبطأ عن ذي قبل لكن في طاقة أكبر ــ"

ضحكت ماري بغتة. "وضعتِ نابضًا جديدًا في خطوه؟"

"كأنه كان يتذبذب على مهل إذ تحرك". كان صوت بري قصيًا، وجهها مهيب. "وبعد أن تبسم لي ما نظر صوبي قط. ولا مرة. ولا حتى لما كان العادي أن ينظر ناحيتي. حمل نفسه على ألا ينظر. وذاك كيف وسعني أن أخبر".

"طيب، حاولي ألا تحملي وحسب". قالت ماري قاطعة.

لكن بري كانت في مسرة بالغة، في نشوة بالغة، بالغة حتى أنها قلبت عينيها على هاته القولة.

ما حملت بري ذاك الصيف، لكن انتهى بها الأمر تمارس الجنس، وغير مرة. لما عرفت ماري كانت أول خاطرة خدرة في خاطرها: لكني كنتُ أمزح ليس إلا. استحثت النقلة هزة: كيف كانت واردة أن ماري وإمجن من فيما بينهما ما قد قبلتا صبيًا واحدًا، أو شابكتا يديهما بيدي صبي، اللتان ما عرفت عن حق أي فتية كان لهما صديقة صدوقة صار لها الساعة بممارسة الجنس خبرة؟

ما خبرتهما بري خبرة ساعتئذٍ. سحابة الصيف قدمت حفنة تفاصيل مشتتات: ملاحظات مكتوبات ومتبادلات، وقصر اللعب صندوق بريد؛ لقاءات أواخر الليل عند حاويات القمامة، آباء لا يفطنون لقابلية طارئة لإخراج القمامة؛ أحاديث مقتضبات على درجات السقيفة الخلفية، تشنجات من صوت باب شبكي يتأرجح مفتوحًا. تخيلت ماري حبًا محرمًا يتفتح عفيفًا في ريڤير كانت رملية

وإضاءتها خافتة لكن على صورة بديعة؛ كما لو أن بري قد وضعت لتمثل في إنتاج نسخة من "وِست سايد ستوري" لمسرح مجتمعي.

غير أنه طيلة الوقت قد كان الجنس الحقيقي الواقعي يمارس. وليس مع ألكس، الصبي الأسمر قليلًا بالباب الجنب، لكن مع نيكولاس. نيكولاس بِكت. فشقيق إمجن كان بالبيت صيفًا قبل سنته الدراسية الأخيرة، وبري مارست الجنس معه. أو مارس هو الجنس مع بري. حتى بعد سنين تلو ما كانت ماري على يقين لما صاغت الجملة في رأسها؛ من هو فاعل حرف الجر ومن هو مفعوله.

ما كان لبيت إمجن باحة خلفية عادية: ما امتد وراء بيتها كان أقرب إلى حديقة حرجية، كل ما فيها وارف وأثث، ورقعة مرجة صغيرة، شاذة ليس إلا. جُديول جرى بين الخضرة، وعلى أنه ما كان لك على الدوام أن تبصره فإن لك على الدوام كان سماع شلشلته. كان الجدول ضيقًا كثيرًا حتى أن لك أن تخطو فوقه في يسر، ومع ذاك فقد بُني جسر حجري خفيض. نمت الأشنة في غزارة، وكمثلها السراخس والهُسْتَه. ركم من الردندرة تبدلت طبقات من الوردي في الربيع. تماثيل ارتفاعها إلى الركبة طلعت كيفما اتفق من تحت الأرض: ضفدع قائم متخصر، ملاكين طفلين متشابكين، أرنب منغمس في قراءة كتاب. في غيابة الحديقة الرقطاء من نور الشمس انتصبت مسلة ومن الجرِار عدة.

لما كانت إمجن وماري أيفع لعبتا هناك بعد المدرسة. آنئذٍ كانت التماثيل أقل في عدد والقفرة أشسع قليلًا، وعرزال بدائي أيضًا وأرجوحة من حبل وحبل انزلاق قصير. كانت ماري خشيانة المرتفعات، خشيانة الحشرات، محترزة من التراب، متنبهة للبلوط السام، تتحاشى على الدوام شبك العنكبوت كان موجودًا أم لا على حد سواء. ما عندها كان غير بنطال واحد خصره مطاط وهو من الفَيْلور. مع ذاك ما يئست إمجن منها. ظلت صماء عن المقالق والشكاية. في غير انثناء عزيمة دربت ماري فوق الجلاميد وتحت الفروع المتساقطات وفي الرقاع المشبعات بالماء. ما تنهدت لما اختل توازن ماري أو احتاجت وقفة لتسترد الأنفاس. ولو ما كان من يأس ماري ما انفكت إمجن تدعوها للعب، الأسبوع فالأسبوع؛ انفرطت الشهور، ثم السنون.

ماري لن تنساها: ملمس قبضة إمجن الهزيلة على معصمها إذ سحبتها خلال الفتحة العويصة في أرضية العرزال.

بدأ صيف قبل الثانوية؛ قلما جرؤت البنات على الطلوع إلى الباحة الخلفية. ربما مرة أو اثنتين لترشن سيقانهن أو لتعثرن على نعنع فتضعنه في دورق ليموناضة. تجربة ماري التدخين الثانية وقعت باكرًا ذات صباح، وحدها، تحت شجرة تفاح حرجي. بعد السباحة في مسبح الجيران أسدلن بعض الأحايين ملابس سباحتهن على الكراسي الأدرُندَك في الباحة الخلفية لتعجلن بجفافها، إلا أنهن غالبًا ما علقنها في الحمام وحسب. ظهر أن بري نسيت دأبًا أين قد تركت ملابسها ومن ثم تعين عليها أن تجري في أنحاء البيت وعليها بكينها المبلل مفتشة عنها، تصيح من البرد صيحة حادة.

لأنه كان صيف وكن ماضيات إلى الثانوية وسعهن البيات عند بعضهن البعض لا الجمع وحسب بل وبقية أيام الأسبوع بالمثل. في ليلة من قبيلها صادفت ماري بري تدفع فاتحة الأبواب الفرنسية من خارجها، والجة حجرة المعيشة من الحديقة. أرعبت ماري حتى التلف أو كادت. ما قد كانت يا ترى فاعلة هناك برانيًا؟ كانت ساعة متأخرة — نصف الليل– ما عرفت ماري أي ساعة كانت. قد أيقظها عطش شديد ما كان ليطفأه سوى عصير برتقال معصور توًا، وكانت تشق طريقها الصامت إلى المطبخ.

لهنيهة كأن بري ما أبصرتها. كان وجهها خلوًا، وحافية كانت، تلبس التيشرت الفضفاض الذي قد لبسته قبل النوم.

"أصبتيني بنوبة قلبية!" همست ماري، وقفزت بري، كاتمة نفسها.

"ماذا تفعلين صاحية؟" سألت ماري، لكن قبل أن تسع بري الإجابة ظهر زولٌ ضخم وراءها في الممر. كان نيكولاس، مرتديًا ملابسه المعتادة، الشورت الخاكي نفسه وقميص أُكسفرد أبيض مجعد قد لبسه في النهار. ما كان ينتعل أي حذاء.

"مرحبا نيكولاس" قالت ماري آليًا. وثم في حماقة: "كنتُ آخذ عصير برتقال وحسب. أظن أن بي خطب ربما".

انبعثت الكلمات خارجة من غير إعمالها فكرها. كما لو أنها كانت تعتذر، كما لو أنها كانت هي من قد قاطعت أو أزعجت.

وهاته ستكون الهنيهة التي آنها عرفت. من غير حاجة لإفصاحها لها، من غير أسئلة وأجوبة. لستفطن لها كلها – الساعة المتأخرة، القدم الحافية، الجسدان الواقفان في العتمة، واحدٌ وراء الثاني– ولستفهم. لستراهما، ولستعرف، وبري لستعرف أنها عرفت. كلتاهما تعرفها سوية.

لكن ما كانت هاته ما حدث. هاته كانت الخيال الذي اختلقته ماري وحسب: عثورها عثور من لا يعلم، مؤنتها من الحدس. نظرة تقاسمتها وبري في حجرة المعيشة الظليلة، يتبعها فهمٌ يفوق سني عمرها.

لما أنكِ لستِ على الفيس بوك لا أعرف إن رأيتِ لكن ليست مأثرة ضئيلة تشغيل حافلة وتسييرها. يون صناع كثيرًا لكني بخست في جد. الافتراضي ألا تبتاع أبدًا حافة مدرسية من المعلنين على (Craigslist)!

إذن: بادئًا كان المحرك الذي لزم استبداله. لا مفاجأة كبرى في تلك. وإلا لكانت الحافلة لما تزل تُستعمل صح؟ لكن من كان له أن يعرف أن محركات الديزل تكلف **الكثير**. كعربون جم على منزل. ثم فشلت المكابح في الفحص. حافلة (FYI) لها مكابح هوائية لا هيدروليكية والهوائية أبهظ لا محالة! إمجن خلصتنا عن حق بدفعها إصلاحًا شاملًا كمبرسر جديد أسلاك جديدة صمامات جديدة **الورشة**. فوقها الأتعاب. أرادت كل شيء جديدًا. في يومنا الثالث قفز أيل طالعًا أمامنا وكنتُ ما أسرني وأسعدني أيما سعادة بنظام المكابح الجديد! الأمر كله معجزة تلو الثانية. وقعات تلطف شادهات طارئ مأتاها. أعدت توثيق ثقتي بالإنسانية التي كانت في انحطاط لغير علة على أني واثقة أنك تفهمين. كان يون من بعد كثير جدال ودفاع غلب إحجامي عن إعادة صفحة جمع التبرعات. قال إن الناس تريد أن تعين والموقع سهل فعلها ليس إلا وعلى أني أكره الاعتراف ساعة يكون على حق كان محقًا.

ما صادفت ماري نيكولاس وبري في وسط الليل. ولا في أي حين من ذاك الصيف أسرت لها بري. كان على ماري أن تُخبر –على لسان ميلني من بين كل الناس– فيما تقلب في صندوق المستوردات حديثًا في محل أسطوانات على مقربة من واحدة من الجامعات التي لا محيد عنها. كانت محلات لتسوق الموسيقا قبل بدء الدراسة. ما انهدت ميلني بل كأنها كانت تتمدد تحت ثقل ضميرها. جادت عيناها بالدمع إذ خبرت ماري، لكن ماري ظلت متحجرة فيما تبدي. ما كان إلا لما أقلتها أمها آخر الظهر أن صفقت باب الراكب في السيارة وبكت.

أمها – من كانت سائقة مترددة بادئًا– ساقت إلى البيت على مهل زيادة؛ كما لو أنها تقود مركبة صغيرة في عاصفة هابة. قد عزمت ماري على ألا تنطق بقولة، لكن ذاك العزم كان عسرًا لزومه إذ صارت داخل بدن تويوتا أمها الدافئ. ما وسعها أن تميز ما آذاها أكثر: واقع أن بري قد مارست الجنس، أم أنها قد مارست الجنس مع أخي صديقتهما الأعز، أم أنها على نحو ما مع كل إغواءها الأبله قد ظفرت عن حق بالتفات نيكولاس بعيد المنال، العزيز، أم أنه تعين على ماري أن تسمع بالأمر متناقلًا من شخص عابر كميلني. كان الأمر كمثل جس كسر في طرف مشتعلٌ فيه الوجع. إذ جهشت ما انفكت أمها تسأل أسئلة عادية بسيطة: "أصارت بري في الخامسة عشر؟" (لا، الرابعة عشر، يوم ميلادها كان في أبريل)، و "أما تزال تسكن ريفير؟" (نعم، الجلي)، و "ذكريني كم عمر نيكولاس؟" (ستة عشرة! أقاموا تلك الحفلة الكبرى التي فيها خيمة؛ كنتِ حاضرة. الخريف الماضي). أسئلة يسيرة إجاباتها، من قبيل الأسئلة التي لتسألها الكوتش بِل إذ خبطتِ رأسكِ برأس فتاة ثانية فيما تلعبن الهوكي الأرضي في حصة الرياضة.

في البيت أم ماري دلتها من الباب الأمامي، أعدت إبريق شاي، وثم فرقت شعرها ومشطته. إذ فرغت من الضفيرتين قالت في طمأنينة: "عليكِ أن تخبري إمجن، وعليّ أن أخبر أبويها". كانت واقفة وراء ماري، القاعدة على كرسي مطبخ. ما رأت ماري علة الحاجة لتخبير أبوي إمجن أي شيء، لكن أمها إذاك أخذت تحل شعرها وتضفره ثانية إذ راحت تشرح معاني مصطلحات قانونية:" في مقام الوالدين"، "مسؤولية". لما خطت أمها من وراء كرسي ماري لتفتح صنبور الماء رأت ماري النظرة على وجهها. خشيت لهنيهة كريهة أن أمها كانت توشك أن تبكي. لكنها ما فعت؛ شطفت أكواب الشاي وفركت المقالي المتروكة منقوعة في المجلى وما انقطعت إلا لترفع بصرها خطافًا وتقول في أوسط خاطرة لماري أو لانعكاسها في النافذة: "فتحوا بيتهم لها".

بدت إمجن مسرورة مسرة بالغة جلية لما سُئلت الرجوع إلى العرزال الذي كان في نفس ماري كمثل وحش. "ما جئنا هنا منذ دهور" قالت إمجن، ومدت ذراعيها فوقًا، ذاهلًا عن تراكم بيوت العنكبوت. "انظري! إني أصل للسقف الآن".

لكن -إذ حكت ماري- غاصت ذراعا إمجن تحت إلى جنبيها. انحنت حتى يسعها حط كوعيها على حافة النافذة الوسخة، وخلت جماع شعرها يسقط قبالة ويحجب وجهها. عرفت ماري أنها كانت تبكي، لكنها عرفت بالمثل ألا تحيطها بذراعيها. لما تكلمت إمجن آخرًا ما التفتت لتنظر فيها: "طيلة هذا الوقت حسبت ألكس كان من استحبت".

كان في صوتها انقطاعة مفاجئة، وتلك جعلت ماري تأخذ بالبكاء.

"حسبتها بالمثل. أقصد ذاك كان ما خبرتنا. لكنها ربما كانت تستعمله ستارًا؟ لا أعرف إن كان أي شيء في تلك حق".

صمتت إمجن هنيهة. ثم قالت: "لعلها أرادت أن تحكي عما اعتمل في نفسها من غير الاضطرار لقول من كان الشخص".

أومأت ماري عابرة. "صح. كتمويه".

واصلت إمجن نظرها من النافذة.

تفسير ثانٍ وارد نهض على حين غرة في ذهن ماري، وأحست معدتها تتقلب. ربما ما قد كان ألكس تمويهًا بل *مران*. كتحمية. مخطرة صغيرة، لا ضغط. أسمر البشرة قليلًا، ألكس غليظ الجسم فيما مضى. يستحب تسديد الرميات في السلة في الباحة الخلفية قبل المباراة الكبرى. هزت كتفيها. ما كانت أبدًا لتنطق بتلك جهارًا.

"أتعرفين؟" قالت إمجن. "أتمنى عن حق أنهم ما قد أنزلوا حبل الانزلاق".

شاركتها ماري نظرها في الباحة. تحتهما امتدت طبقة خفيضة من الخضار العريض، اللامع. كان كأنه بساط أخضر متلألأ طافٍ بوصات معدودات ليس إلا فوق الأرض، خصب لكن غير مطمئن التمدد فيه. فيه -لا عليه- لأن البساط لا محالة ما كان متينًا بل من نباتات كبيرات، أوراقها يابسة كانت لتنشال عليك أو لتتكسر تحتك لو أنك جربت ممارسة الجنس في أوسطها. هذا كان شطر من غرابة خيال ماري؛ ما كانت عن حق بقعة سهلة في هاته الحديقة الحرجية لشخصين يتطلعان لممارسة

الجنس. أو أقله جنس على ما تخيلته. استلزم في ذهنها سطحًا مريحًا إلى حد معقول، سطح كان أفقيًا ضرورة. ما كانت أبدًا ولا في الخيال لتنظر في التالي واردًا: على غطاء سيارة فولفو، منثنيان على طاولة، واقفان على قدم واحدة، مدفوعة قبالة باب حمام في صمت.

كيف استفتحتا الحديث مع بري؟

"علينا محادثتك. في أمر بالغ".

أو: "ميلني خبرتنا."

أو: "ألا تغلقين الباب؟"

أو: "لا أعرف حتى ما أقول هذا اللحظة".

كلها وجيهة، لكن ما فيها واحدة متيقنة. ما فيها واحدة وقعها مألوف ولو طفيفًا. مهما حاولت ماري جاهدة ما استطاعت أن تكر. لا ما قيل، أو أين. الفراغ المطبق جعلها تتساءل أقد وقعت محادثة. أحادثت إمجن بري وحدها؟ أما كانت ماري طرفًا فيها؟ أتدخل الآباء ورتبوا ما رتبوا فيما بينهم، وفي أذهانهم خاطرة تجنيبهن ألم التحدث؟ أم أكان حضور ماري المحض ساعة هذا الحديث حقيرًا كفاية حتى أن ذاكرتها ترفض الساعة استحضاره؟ وجيهة كلها بالمثل.

ما عرفت ماري أنه أيما قد وقع في حديث من قبيله لستعرفه بري على أي شاكلة نُقلت المعرفة. سيكون لها استذكار كل تفصيل فيه بينًا واضحًا.

كمثل ما وسع ماري استحضار أين قد كانت ومليني واقفتين في متجر الأسطوانات ذاك الظهر من أغسطس، ما كانت مليني لابسة (كارديغان أزرق فضفاض فوق تيشيرتها البَزِّكوكس)، ما قد أكلتا (سندويشات ملفوفة بصلصلة الطحينة)، ما كان شغالًا على سماعات المتجر (نِك كيف يؤدي نسخة من "Hey Joe").

تفصيلة ثانية يستحيل نسيانها: العبارة أن نيكولاس قد أكرهها، في حمية ودوامًا؛ عبارة تصف أمها. ففي إحدى المهاتفات بين أمها وأم إمجن قد التقط نيكولاس السماعة في شطر ثانٍ من البيت –

مقاطعة لن تكون ممكنة حتى اليوم- وحادث أمها في غضبة، على شاكلة أسلوب مناظر متمرس يعاقب ولا يلين. إثرها قد دخلت حجرة ماري تبدو دائخة. "نعتني في جملة ما نعتني به من مستكرهات" قد قالت أمها، تغطس بثقلها على السرير "حشرية. حشرية مدعاة للشفقة تريد أن تجعل الجميع سواها في تعاسة كمثلي".

جفوة في الصلات تلت، لكن وبالرغم مما زعمت بري بعد حين لا يسع تسميته عقابًا عن استحقاق. فالفترة الفاصلة كانت أشبه بمنفس، بفترة نقاهة، عن تنافر حق. عقب تحادثهما في العرزال قد تصورت ماري إمجن ونفسها تسيران جنبًا إلى جنب في ممرات المدرسة، الرأسان محنيان كالمترهبنين، وبري مستبقية مبعدة تهذبًا، مدبرة لهما، إذ لفت ولفت مفتاح أرقام خزانتها. وفي أسابيع الثانوية الأولى أي نعم منحتاها متسعًا. إنما في غير شدة. ما انفكتا عن مباسمتها؛ مدتا لها قلمًا لما عازها واحد، لوحتا وحيتا، استحبتا جاكيتها الجديد، ضحكتا لما قالت قولة طريفة في الفصل، أمسكتا الباب مفتوحًا لأجلها.

أن رجعتا ثنائيًا أتى بيسر التنقل في خفة. ربما أم ماري ما قد كانت على خطأ كلية في أن اثنين أخف تأزمًا. من الأيام ما كان وقعه في النفس طيبًا، على نحو ما كان حرمانك نفسك في صوم الأربعين طيبًا؛ تقوية أن أُدبت وهزلت. لكن من الأيام ما كان وقعه في النفس رهيبًا أن بري ليست في جنبتها، وماري سارت في مبنى المدرسة وفي نفسها تذبذب وانكشاف، يلطمها الهواء، كأنها راكبة حذاء درب وعر في جيب من غير باب. في حجرة الغداء شاهدت بطرف عينها إذ أطبقت بري على غير جماعة؛ التحقت حينًا بالبنات الموهوبات في الموسيقا، اللاتي سلخن أسباتهن في المعهد الموسيقي، ثم كأنها صادقت من فورها بنتًا جديدة أتيتها اسمها پام؛ من سكنت بلدة أبعد حتى من ريڤير. كانت بالمثل اثنتين أليسن، من استحبتهما بري على الدوام وكانت معهما مُحدثة. ما قعدت وحدها قط أي: ما كانت من غير صحبة.

ذات يوم رأتها ماري تطلع من حجرة الغداء تحمل حقيبة مستحضرات التجميل التي عليها نخلة وفيها حملت سدادتها القطنية ولوهلة أحست نفسها عليلة من اشتياقها.

غير أنهن في شهور معدودات عاودن تصادقهن. قد وضعن ثلاثتهن في صف الفرنسية المتقدم نفسه، مع المدام بيرنرد السخيفة في تهيب، وعسر ألا يقعدن معًا لما كان الكثير من الحماقة والعمل الجماعي وجميع الجريات الفكاهية السخيفة. ثم على حدة استحوذ على إمجن وبري خاطرة طاقم تجديف المجنونة، وفيها بري دفافة وإمجن مجدفة دانية من الجؤجؤ، وما طال بهن الحين حتى كن جميع في منزل إمجن في ليلة جمعة، يأكلن من دينوز. رافعة شريحة بيتزا هاويان من العلبة سألت بري: "أخلصتُ من المراقبة الآن؟" وعلى أنها سألتها في صدق، من غير أي سخرية أو ظرافة ضحكت ماري وإمجن في لطف، كما لو أنها قد مزحت مزحة حلوة إنما مستغلقة. ومن ثم تصافين وتواصلن ثانية، ثلاثتهن. استحسن الآباء شتى الأمر، منهم في تحوط أشد من سواهم، على أساس أن قواعدًا بعينها لستراعى.

غير أنه لو صدقت ماري نفسها لستقر بأنه ولو أن صداقتهن ما انقطعت –وأي نعم ما انقطعت، متبدلة دأبًا في الدنو والبعد، في الثانوية والكلية وفي صميم الرشد– حملت معها أثارة مستكرهة، ما يشبه سُقاطة حصى دقيقة تكاد تكون خفية قد حملتها معها إلى الجواني من غير تفطن. مُسيحات مستصعبات من شيء أبى أن يكنس أو يمسح. لما أتت ماري آخرًا بصبي في صحبتها –استغرقها الأمر حينًا– كان عليها أن تحصن نفسها. كانت يقظة. متفطنة للحظات التي سددت بها بري ابتسامتها نحوه، أو لمست ذراعه، أو رفعت بصرها نحوه من تحت شلال شعرها الذي فتحته الشمس. وكل تزيينها نفسها الذي ما فيه كلل ولا ملل؛ ما عاد فضولًا بل تهديدًا. فالأمد اللامعقول الذي لزم بري لتهيأ نفسها قبل مفارقة البيت صار مغيظًا، باعث حنقٍ. ماري عرفت أن فيما يعتمل في نفسها على هذا النحو ظلم. ظلم إدراك ما كان ليكون لا يكاد يزعج في صاحبة ثانية دليلًا في بري على سقطة قد كشفت عن نفسها، غدرًا. لكنها هكذا أحست في نفسها.

ألما يزل أبواكِ يسكنان في العنوان نفسه؟ كان ذاك السؤال الباعث الأصل لرسالة صار طولها طول ملحمة الآن! أحزنني حزنًا بالغًا نبأ بيع أبوا إمجن بيتهما. عسيرة خطرتهما على البال في شقة. أتمنى أن أبويك لزم مكانهما حتى اليوم؛ لا أتخيل كل هاته اللوحات والنباتات في محل ثانٍ. أول مرة لي في بيتك خلتُ نفسي في متحف! لكني عن حق أحببتُ السكون والهدوء ورائحة التربة من الأصص. لا يسعني أن أمشي جائزة ببروميلية من غير أن تخطر أمكِ على بالي.

إني خجلى أن طال بي الأمد حتى ساعتي لأرسل رسالة شكر لائقة. وتانكس الأطفال أيضًا. هاهاها التانكا. أرسلت إميل شكر من فوري من الموقع لكني أردت أن أبذل فعلة أحسن لأجلها. كل مرة أطلع طعامًا من الثلاجة أو أوقد الموقد أو أضع ملابس في الغسالة أشكرها. كل أجهزتنا الصغيرة. مُنجدة كمثل المكابح! رجاءً أرسلي لها حبي وعنوانًا مؤكدًا. وبالمثل إخبار عنكِ رجاءً! ما من داعٍ لكتابة رواية من القرن التاسع عشر كمثل هذه لكني افتقدتكِ وأردتِ أن أعرف كيف حالكِ. xoxoxoxo

أحست ماري أنها في اضطراب. تعين عليها حط جوالها. أحست انكماشًا في جميع بدنها، وثم نوبة تنميل، حرارة لا تطاق.

كيف ما قد خبرت بري عن أمها؟

ما احتاجت إحصاء كم قد كانت. قد عرفتها، عرفتها تمامًا على التعيين. السبت لستكون أربع أشهر. أربع أشهر، زائد ست شهور علاج سابقة، وسحابة ذاك كله ما قد تدبرت تخبير بري.

قد كانت آماد صمت طوال قبلًا، من الجنبتين؛ صارت تطول إذ هن أنفسهن صرن أسن. ماري ما قد عرفت على سبيل المثال بشأن دراسة الحشرة والحافلة. ما وسعها تذكر إن هي قد أتت على ذكر ولو طرفٍ من أمر انتقالهم لبري. بعثت بطاقات الأعياد كل سنة، راسلتا بعضهما البعض في أيام ميلادهن بسلاسل من الرموز التعبيرية المولعة، المتهللة. ما كان إهمال، لا اشتكاء بينهما الاثنتين، أو ما كان على ما عرفت. لكن هذا الإغفال من ماري كان غير؛ لا في قدره بل في بابه. كان مُعاب.

قد تبرعت أمها البين، ومن وقعه فليس بقليل. هذه كانت أول مرة تسمع ماري بالأمر. والذي كان مدهشًا، لما أن أمها سحابة علاجها قد استحوذ عليها أو كاد واجب جعل حسابتها في انتظام والنهوض بأعباء ما سمته تدبير المنزل. فقد ضمنت ماري في فهرسة اللوحات على سبيل المثال. قد قالت بأن أبا ماري لن يذكر من أين قد كان مصدرها، أيها الثمين وأيها ما ليس ذاك. كانت بالمثل مشغولة البال بصنف الطعام الذي كان يطعمه القطط. ما انفكت ماري تردها إلى مسائل أهم: المعاملات المالية، صحب أرادت لقياهم. مع ذاك ما نطقت أمها بقولة عن صاحبة ماري، أو صفحة التبرعات، أو المال الذي قد أعطتها.

تساءلت ماري إن قد كان لعطيتها ربما شأن بما في الأخبار- فأمها دأبت على الإشارة لنفسها وفيما يشبه التساهل بمدمنة أخبار التلفاز؛ من يلغي ما عنده من عزمات ليلزم البيت ويشاهد جلسات استماع مجلس الشيوخ أو يتتبع القصص العاجلة- ومن ثم فكثير من الأخبار الأخيرات قد جعلت ما وقع في ذاك الصيف في النفس لصيقًا ثانية. اختلف الماضي اليوم، ولا سيما الجنس. لم كانت بري التفاحة الفاسدة؟ من كانت في حاجة للعقاب؟ أنى كانت ابنة أربع عشر من أُخذت بما وقع وعليه حوسبت؟ ما كانت هاته أول مرة قد خطرت فيها أسئلة من قبيلها لماري: كانت نسوية بحق السماء، ارتادت الجامعة. لكن قد يكون كل ما يحكى بروح العصر أفضى بأم ماري إلى النظر ثانية فيما قد حدث منذ عقود انفرطت، و-لو ما كانت كلمة كبيرة كثيرًا- إلى التوب عن ضلعها فيه.

كانت الخاطرة موحشة. أمها -الأم العملية، الكيسة، النشيطة، التي لا تبدي عاطفة، المتشبثة برأيها أيما تشبث وذات البصيرة- كانت قادرة على تغيرٍ في قلبها، لما ماري ما كانت. إذ أنها فيما قد سلخت من هاته السنين كلها تتوهم نفسها رقيقة، تهذب خوالجها ومداركها، ظل قلبها قاسيًا. لا يلين. فمهما جهدت في أن تنظر في الماضي في تنور، مهما أرادت أن تبصره بعينين أصفى ما انفك قلبها في عناد يضع بري في محل من ينزل بها القضاء. فاعلة وبادئة. الذات الفاعلة، الراغبة، المهملة. تلك كانت صاحبتها، الفتاة التي ذكرتها. لكن أمها الجلي قد انتهت إلى رأي بالأمور غير.

الآن إثر هبة حرارة كريهة برودة. لمست ماري جبينها، وجنتيها، وأحست أنها كانت بليلة. ملتقطة جوالها نقرت الشاشة الثانية ونظرت في الرقم غير المألوف. " إني خجلى أن طال بي الأمد حتى ساعتي لأرسل رسالة شكر لائ...". ما كانت لتحذف أبدًا هاته الرسائل، لكن في الحين نفسه ما وسعها أن تتصور أبدًا اهتدائها إلى سبيلٍ للرد.

بري كانت من اخترعت الأسماء. تطورت على مر الزمان؛ على ما هو دأب الألقاب والكنى. بادئًا جاء لقب إمجن؛ ما كان بعيدًا تبدل بِكت بـ بكل[16]. كان هذا على الأرجح في الصف السابع. لابسها الاسم لأنه كان غلطًا على أتم وجه. ما في إمجن شيء مالح أو رابض، آخر واحد كنت لتتوقع الوقوع عليه في برميل مظلم شديد الملوحة؛ وتلك كانت العلة أن كان لا بد مرضٍ منادتها بذاك. بعد شهور من المخاطبة حصرًا أو يكاد بيكل- دوركِ بكل، ناوليني ذاك بكل، مرسي بكو

پكل– أجابت إمجن ذات يوم بـ "على الرحب والسعة برِكل"[17] لعلات بينة. وعليه صارت بري برِكل، اسم أُختصر أخرًا لبرِك [18]. في أعقاب استحداث برِكل كانت بري من بتت بأنه يتعين أن يكون لماري اسم بالمثل. ساعة الغداء اقتادتهما إلى مكتبة المدرسة ورفعت فاتحة المعجم الضخم القاعد على حامله. قلبت في قطع ضخم، ثم تصفحت ورقات منفردات، ثم أمسكت ودققت في مدخل.

"بشرى!" قالت بري. "احزروا معناها". زحزحت إصبعها على ببطء في الصفحة. "مِكل تعني "كثير، أو قدر كبير" كما في العبارة "Many a little makes a mickle"[19]. واحزروا أين معناها ذاك؟"

من وراء نظارتها كان وجهها منارًا.

"احزروا".

ما استطاعت إمجن وماري حزرًا.

"شمالي إنجلترا". تبسمت لهما في اغتباط. "حيث مَنشستر!" زعقت، كما لو أن مسرة ماري كانت مسرتها.

الهوامش:

(1): قصدت الجمع من كلمة (TANKA) إنما وقع خطأ مطبعي، والتانكا أي القصيدة القصيرة هي لون من الشعر الياباني الكلاسيكي.

(2): أي المغني الشهير.

(3): Chariots of Fire.

(4): (Jerusalem Hymn): ترنيمة أُقتبست من قصيدة نظمها الشاعر وليم بليك وتنشد في المحافل عادةً بديلًا من النشيد الوطني الإنجليزي أو رديفًا له.

(5): (Play-Doh): علامة تجارية لصلصال تشكيلي ملون للأطفال.

(6): (The Smiths): فرقة روك بريطانية تشكلت في مَنشستِر سنة 1982.

(7): (Kiss 108): محطة إذاعية شهيرة في مِدفور، مَاسَاتَشْوْسِتْسْ.

(8): (Scarecrow and Mrs. King): مسلسل تلفزيوني أمريكي بُث في أربع مواسم من سنة 1983 حتى سنة 1987 على قناة CBS، وفيه تكون أماندا كنج ربة منزل مطلقة وعميل الوكالة الباري لي ستسن اللذين تصير بينهما شراكة غريبة تؤول إلى حب إثر لقيا في محطة قطار.

(9): (Jeopardy!): برنامج مسابقات يُعرض منذ سنة 1964 ومنها نسخة عربية أنتجتها إم بي سي 1 بعنوان المحك.

(10): (Masterpiece): مسلسل أنتولوجي درامي أُذيع على قناة PBS سنة 1971 وبلغ عدد مواسمه خمسين.

(11): (Edward Gorey): كاتب أمريكي، مصمم أزياء، وفنان عرف برسوماته لكتبه وبالمثل رسم أغلفة كُتاب آخرين ورسوماتها.

(12): (Sunkist): علامة تجارية لمشروبات تجارية نكهتها الأولى البرتقال أُطلقت سنة 1979 وهي تنافس فانتا.

(13): (Petit Écoliers): أي: بسكويت الطالب: بسكويت فرنسي عادة ما يكون في مستطيلات مغطاة بالشوكلاتة.

(14): Hibachi.

(15): (Big Wheel): علامة تجارية لدراجة أطفال ثلاثية وطيئة غالبها من البلاستيك.

(16): أي مخلل.

(17): أي سهل القصم أو الكسر، وقد يكون لأن في معاني اسم بري القوة والنبل.

(18): أي قرميد.

(19): مثل سائر ومعناه أن نتفًا كثار تتراكم وتضام فتصير وفرة، ومنه اقتبس العنوان.